البطل

﴿ لامين مشرق ﴾

* * *

كما تدب الخمرة الى لب الشارب الطروب هكذا دب الحب الى قلبي الولدين الصغيرين ، ومثلما يتمشى البرء بين اعشاش السقام كذا تمشى الهوى في شرايين الجسمين الطاهرين ؛ ومثلما يربط ناموس الجاذبية اجزاء الكون ربط ناموس التمازج روح الفتى الى روح الفتاة وختم عليهما بشمع الحب الاحمر — بقبلة

من ذا يستطيع ان يحل ما عقدته تلك القبلة ؟ من يقدر على ادخال شعرة واحدة بين روحين متعانقين ؟

يقولون ان المدنية الحديثة تخنق جراثيم الحب الطاهر في مهدها . ولكن الحب الطاهر — الحب الناتج عن التفاهم لا يموت . حب الارواح لا تخنقه مدنية حديثة ولا وحشية عريقة ولا ارض ولا سماء . في وسط نيويورك — تلك المقبرة الواسعة المشحونة باشلاء الحب المقتول ، المحشوة بجثث العواطف المخنوقة ، المملوءة ببقايا الشرف الموطوء ، تحت قضقضة عظام المروءة المسحوقة ، وعلى تراب المودة المدفونة ، بين اشواك الخيانة ، وحشرات الفساد ، واطماع الشهوات الجسدية — نبتت بذرة الحب الطاهر ونمت وافرخت وازهرت . نعم ولم تقو المدنية بسموم فسادها على قتل حب بولس وبولين

تعالوا معي الى تلك الغرفة المظلمة في اطراف نيويورك ادخلوا وانظروا فالليلة من ليالي آب المقمرة · هنا عَلَى السرير · ألا ترون بولس ؟ ما باله مستيقظ وقد دقت الثالثة بعد نصف الليل · ما باله يبتسم لجدران غرفته كأنه مجنون يلاعب نفسه · هاقد نهض من سريره وجلس بقرب النافذة مسنداً رأسه بيديه · انه يتأمل في جمال السماء ويتلذذ بنسيم الليل المنعش · ها قد رجع الى السرير واخذ من تحت الوسادة صورة فوتوغرافية · انه يتفرس فيها · انه يقبلها · وهذا الخاتم · ما باله يلاعبه باناملة بدلال واعجاب وحنو · ها هو قد اشعل القنديل · ها قد اخذ مفكرته السرية وشرع يكتب ويدهِ ترتجف وصدره يهبط ويرتفع ·

« الجمعة في ٢ آب · انا اكتب ليلاً · اكاد أجن من فرحي · غداً »
« سيعقد لي عَلَى بولين · اواه ما اطول هذا الليل · هذه ألذ ساعة حييتها · »
« انني سعيد · سعيد جداً · سامحني يا ألهي عَلَى هذه السعادة ودعها ان »
« تدوم اكراماً للمسيح · »

مَن يلوم بولس عَلَى هذا الجنون ؟ مَن يعرف بولين ولا ينحني اجلالاً لهذا الاسم ؟ ان الملائكة ليست اطهر من بولين ، وان صورة الجو كوندا المسروقة من قصر اللوفر ليست اجمل من بولين ، وان حب مدام ريكاميه لرولف الانكليزي لم يكن اعمق ولا اثبت من حب بولين · واية سعادة يحلم بها البشر يمكن ان تعادل سعادة الحب · اية لذة تعادل هذه اللذة واية نشوة تخدر الروح بانفاس العطر وتمددها عَلَى اسرة الورد وتغطيها بانسجة من

لمعان الصبح وتهز لها بايدٍ ناعمة اكثر من المخمل والحرير كهذه النشوة نشوة الحب ؟

بولين · تلك الاميركية الجميلة التي فتنت نيويورك فحامت حولها القلوب وترامت عَلَى قدميها افئدة عشاق الجمال · تلك الفقيرة التي تمنى الوف الاغنياء ان يبتاعوا قبلة من ثغرها بجميع خزائنهم · تلك العاملة التي لو شاءت لاصبحت ربة قصور الاڤنيو الخامس ومديرة ملايين وال ستريت· تلك الفتاة الفتانة ، تلك الكليوبطرة الاميركية رفضت نيويورك واميركا والعالم لاجل عامل فقير اجنبي اسمه بولس · تلك الزنبقة البيضآء ، تلك الوردة الناضرة ، تلك القلة الساحرة ، تلك الحمامة الناعمة ، تلك الذات المعنوية الخارقة ، تلك الماسة الصافية العجيبة ، تلك السعادة الوافرة الابدية ، هي له · عندما يطلع الفجر ، عندما تشرق الشمس ثانية ، بعد ساعات قليلة ، هي له ، لقلبه ، لروحه ، لنفسه · فكيف ينام !

طلع الفجر وبولس يتنقل من السرير الى النافذة ومن النافذة الى الفضآء المرصع بالنجوم وهناك يضيع بفكره بين منعطفات الاحـلام ومنعرجات الآمال · ولما غابت النجوم منفسة في صدر الفضـآء افاق من غيبوبة تأملاته فاذا بالمدينة قد لبست حلة عرائسية من بياض الصباح والعصافير قد برزت من مخابئها تصفق وتغني حول بنات الشمس الراقصة فكأنه يشاهد عرساً بهياً اقامته الطبيعة تنشيطاً للحياة وتقديساً للجمال · وللحال نهض فغسل وجهه ولبس ثيابه الجديدة ونزل الى الشارع بخطوات واسعة وقلب

كبير ووجه يتدفق بشراً ·

من شاهد بولس في ذاك الصباح لم يعرفه · يمشي وكأنه يطير فوق الارض · ينظر وكأن النور يتفجر من عينيه · يلتفت وكأن وجهه مُسخ وجهاً آخر لتمثيل المسرة والحبور · اذا وقف واذا مشى واذا نظر واذا تكلم واذا سكت ففي وقفته وفي مشيته وفي نظرته وفي لهجته وفي سكوته ما يهيج البهجة ويحرك السرور والاستحسان · وهناك عَلَى محياه البسيط ارتسمت خطوط ورسوم وهيئات واشباح كلها طهارة وفرح وسلام وصفاء وطرب· في كل ماضي حياته لم يعرف صباحاً غريباً كصباح ذاك السبت · جميع الاشياء الواقعة تحت حواسه لبست هيأة غريبة · البيوت التي طالما دعاها اعشاشاً للفساد ومسارحاً لحشرات الظلام ظهرت كأنها كنائس تفوح منها روائح البخور وتتوهج انوار الشموع الملونة · الحمارة التي طالما تحاشى المرور بها لئلا يسمع بذاءة السكارى ظنها معمل العطور وجعل يتنشق رائحة الوسكي كأنها عبير البنفسج · الاوتوموبيلات التي قال انها مبنية من ضلوع الفقراء خالها رسلاً سماوية مسرعة لتخفف ويلات الشقاء في الارض · والشارع — الشارع الذي يدوسه كل يوم اصبح مرآة صقيلة تنعكس فيها صورة الجلد الصافي وتطل من وراءه مناظر سهول وجبال وجنائن وانهار بعيدة بعيدة · وتطلع فاذا بالاشجار عَلَى جانبي الشارع قد اصبحت غادات عاريات تماسكن برشاقة واناقة متمايلات راقصات عَلَى نقرات اوتار فضية خفية ينقلن اقدامهن الصغيرة الناعمة عَلَى بساط من المخمل الاخضر

بدأ بولس ان يشك بحقيقة ما يرى . لذلك تقدم الى زاوية الشارع وهناك الاعمى جاك يستعطي فسأله

— اي يوم هذا من الاسبوع يا جاك ؟

— ويلك . ألا تعلم انه نهار السبت المبارك ؟

— صحيح . صحيح . اذاً فاقبل مني هذه الهدية الصغيرة المباركة واخذ من جيبه ورقة بعشرة ريالات والقاها في يد الاعمى ومرّ بالقرب منه بائع الجرائد وهو يصيح

« الحرب . نشبت الحرب بين الدولتين الفلانية والفلانية . عساكر الاولى دخلت بلاد الاخيرة »

الاخيرة بلاد بولس : عندما مرّ اسمها في اذنيه احس بضربة قاسية على دماغه انتشلته من سكرته الجميلة . بلاده ناسها العدو ! اواه كيف انقلبت به الارض بلحظة . الاشجار والبيوت والشوارع والسيارات والحمارات والمدينة بكل ما فيها جمدت كالقبور امام عينيه . النسيم المنعش واشعة الشمس الراقصة والعصافير المزقزقة والمرآة الصقيلة بما فيها من الجبال والسهول والخنائن والانهار اختفت واضمحلت وحلّ مكانها صورة بقعة من الارض متهدمة خربة مدوسة بحوافر الخيل تتسارع فيها العساكر مجردة سيوفاً يقطر منها الدم الاحمر .

اخذ الجريدة وقرأ اولاً وثانياً وثالثاً . ثم طواها في جيبه وتوجه الى شركة البواخر

— هل من باخرة تسافر اليوم ؟

— نعم

— اي وقت

— بعد ساعة من الان

— اعطني جوازاً

ذهب بولس الى بيت عروسته العتيدة فاختليا ساعة ولما سافرت الباخرة كان بولس عَلَى متنها ·

.....

هناك في العالم القديم — في بلاد بولس الصغيرة اصطفت عساكر العدو الجرارة الظافرة · في ذلك السهل الفسيح برزت طلائعها الفخيمة فكادت تسد اطراف الافق وتحجب نور شمس النهار · وتحركت فكأنها سلسلة جبال نارية تتهدج بما في بواطنها من الضرام المتأجج واللهيب الاكال · وسارت تخفق فوق رؤوسها بنود الظفر وتتوهج بينها شفرات العز والانتصار · الوف مؤلفة ابطرتها السطوة واسكرها الفتح الكثير فضربت طبولها ونفخت ابواقها وجردت بواترها الدامية واندفقت متدفقة كالسيول ، مزمجرة كالرعود ، مزبدة كاللجج · الى اين ؟ الى العاصمة

تقدمت الجنود الوطنية الباسلة لتقف في وجه التيار الغازي · واشتبكت المعركة فهجمت الاشبال مدافعة عن عرينها بكل ما وهبتها الطبيعة من العزم والسرعة والبسالة فكادت اولاً ان تفترس عدوها المغتصب · فان هناك فرقة

صغيرة وطنية هجمت في الطليعة دفعة واحدة فافتتحت بالحراب طريقاً واغتصبت لنفسها مركزاً حصيناً جعلت تصب منه نيران بنادقها على العدو فتفتك به فتكاً هائلاً . ومرت ساعة على هذه الحال كادت فيها الجنود الوطنية ان تحرز نصراً وافياً يفضل الفرقة الصغيرة لكن العدو تنبه اليها اخيراً وصدر الامر العام بان يُستعاد المركز الحصين باية فدية كانت وان تُذبح الشرذمة المحتمية فيه عن آخرها . ويا لهول تلك الساعة . فان الاعداء تدفقوا على النقطة المقصودة بكثرة النمل واحاطوا بالشرذمة الصغيرة احاطة السوار بالمعصم فاشتبك السيف بالسيف والتحم المتكافحون صدراً الى صدر ودارت المذبحة الفظيعة وتفجرت الدماء كالينابيع فصبغت الارض بلون الارجوان وتركت بركاً حمراء يغوص فيها الجندي الى ركبتيه . وتكردست جثث القتلى فسدت المعابر وملأت الارض فاضطر الحي ان يعبر على اشلاء اخيه القتيل . لكن البسالة لا تفيد كثيراً مع قلة العدد ولا بد للاكثرية ان تفوز فانه لم يبق من الفرقة الباسلة سوى جندي واحد قد صبغت ملابسه بالدم وهو ذاك الذي كان يدير رفاقه بعد قتل ضابطهم في بدء المعركة . وقف هذا الجندي الوحيد يمسح الدم عن وجهه المسود بالدخان شاهراً بيمينه سيفاً مكسوراً واحاطت به عشرة من جنود العدو صائحة — « سلم سيفك »

— سيفي لا تمسه ايدي الانذال

— قد مات جميع رفاقك

— ماتوا شرفاء وستموتون انذالاً

— انت واحد ونحن عشرة

— قاتلوني لترى

— نرفض قتالك

— اذاً فانزلوا الي واحداً واحداً

— نرفض مبارزتك

— اذاً ساجبركم عَلَى القتال فخذوا حذركم

قال هذا واندفع مطبقاً عليهم ولكن رصاصة في تلك اللحظة اخترقت ذراعه فهوى السيف المكسور من قبضته وسقط جسمه عَلَى الارض بلا حراك

وكان القائد الوطني العام يشاهد بنظارته من بعيد كل ما جرى

مضى النهار ودارت الدائرة عَلَى الجند الوطني لقلة عدده فتراجعوا بانتظام بعد ان تركوا من اخوانهم جمعاً غفيراً ساقطاً في ارض المعمعة . ولكنهم لم ينسوا تلك الفرقة الصغيرة التي دافعت دفاع الاسود وقد صدر امر القائد بان يؤتى بجثث افرادها لكي تدفن باجلال واكرام . جيء بالجثث فمددوها في وسط المعسكر وجاءت الاطباء للفحص فحكموا بموت الجميع الا واحداً كان مغمياً عليه لكثرة ما نزف من الدم من جرح بليغ في زنده الايمن .

غسلت جروحه وضمدت واعطي منبهاً فاستفاق . وكان القائد العام واقفاً عند رأسه متفرساً في ملامحه باعجاب وانعطاف . فلما اصبح قادراً عَلَى الكلام سأله القائد — « هل انت من الفرقة التاسعة »

— نعم يا سيدي

— أما انت صاحب السيف المكسور الذي كان آخر من دافع من تلك الفرقة المنقرضة ؟

— نعم يا سيدي القائد

— قد تذكرتك جيداً . وما هي وظيفتك ؟

— جندي بسيط يا سيدي

— وما هو اسمك ؟

— خادمك الحقير بولس

— من الان فصاعداً قد اصبحت « الضابط بولس »

مرّ اليوم الاول والثاني والثالث الى نهاية الاسبوع والعسكر الوطني يتراجع امام الفاتحين لا خوفاً وانما لقلة عدده وعُدده . وجعل الحصن يسقط بعد الحصن والخندق تلو الخندق والعدو الزاحف كالجراد يقترب رويداً رويداً حتى لم يبقَ بينه وبينها الا صف الحصون الاخير فقلقت المدينة وتولى الرعب قلوب سكانها ووقفت الجنود الوطنية وقفتها الاخيرة التي معناها اما الظفر واما الموت . دارت المعركة الفاصلة وحمي وطيس القتال فكادت الارض تنفجر من وطء الجبال الآدمية المتصادمة . انها المعركة الاخيرة وعليها تتوقف حياة امة باسرها . وانتصف النهار وبدأت كفة النصر تميل مع العدو وبدأ الجيش الوطني بالتراجع امام القوات الهائلة . وخاف سكان العاصمة فشرعوا يستعدون لاخلاء المدينة المحبوبة بعويل وانتحاب . وطاش رأس القائد العام حينما رأى فرقه الباسلة تذوب الواحدة بعد الاخرى تحت نيران

المدافع بلا جدوى · فجمع قواده ومستشاريه وعقدوا ديواناً حربياً ليقرروا فيه الخطة الاخيرة قبل فوات الاوان ·

للمراكز الطبيعية في الحروب اهمية عظيمة لا يُستهان بها فانها قد تكون احياناً كثيرة سبباً لانتصار شرذمة حقيرة عَلَى جيش كبير · وفي التاريخ امثلة كثيرة قد حفظتها اقلام المؤرخين تثبيتاً لهذه الحقيقة · فمن الامثلة في الحروب القديمة المعبر الذي حارب فيه الاسبرطيون الثلاثمائة جيشاً عظيماً من الفرس وكادوا يفتكون به لولا خيانة احدهم افلتيس المشهورة · ومن الحديثة ما حدث في معركة واترلو التي اسقطت امبراطورية نابوليون واضاعت مجد فرنسا المشترى بدماء ابنائها · فان الخنادق الرملية التي اختفى الانكليز فيها مدافعهم في وسط السهل عن عيون القائد العظيم كانت من الاسباب المهمة التي افسدت عليه خطته الماهرة · وكذا في الحرب الحاضرة فقد رأينا كيف يتصارع الالمان والفرنسويون عَلَى تلال فردون مشترين الذراع من ارضها بارواح المئات والالوف من افضل الجنود واشدها فتكاً

وقد حدث انه كان للمركز الطبيعي في المعركة التي نحن بصددها الاهمية الاولى · فقد قرر الديوان الحربي بمصادقة القائد العام بعد المداولة الطويلة ان الدائرة ستدور عليهم ان لم يستولوا عَلَى رابية هناك معينة في حوزة الاعداء كانت مركوزة عليها مدافعهم الرشاشة التي حصدت رجالهم حصداً · لكن المهمة تتطلب تضحية كبيرة فان الفرقة الاولى التي ستهجم اولاً عَلَى الرابية لا يمكن ان يبقى منها واحد فاية فرقة تقدم نفسها لهذا الموت المحتوم ؟

تردد هذا السوءال في افكار الضباط والجنود فبهتوا · ولكنه بغتة خرج من بين الصفوف صوت يقول — « نحن نذهب اولاً » وتقدم شاب صغير الجسم يلبس ثياب ضابط ويده اليمنى معلقة في لفافة بيضاء ومشدودة الى صدره وانحنى امام القائد فسأله

— أأنت تذهب بفرقتك يا بولس ؟

— اذا شاء سيدي القائد

— ولكنك جريح وزندك لا يزال معلقاً فبماذا تمسك الحسام ؟

— قد عودت يدي اليسرى عَلَى حمله واستعماله يا سيدي

— واذا حدث امر لزندك الجريح فربما اخرك عن واجباتك اثناء الهجوم

— اذا اعثرتك يدك اليمنى فاقطعها والقها عنك · كذا يعلمنا المسيح

— اذاً انت مصمم عَلَى الموت فداء للوطن

— اذا سمح سيدي القائد لي بهذه النعمة

— تعال اذاً ايها البطل الفريد · تعال اقبلك قبلة وداع

وانحنى القائد فقبل جبين الضابط الصغير

بعد دقائق قليلة وقف الضابط بولس امام فرقته الصغيرة وقد شهرت بايديها السيوف اللامعة وامتطت خيولها بكبرياء وحماسة · وضربت الطبول اكراماً للابطال المستشهدين وعزفت الموسيقى اللحن الوطني فكشفت الفرقة رؤوسها ورفعت قبعاتها باحترام ووقار ولم يكد ينتهي الدور الأخير حتى صرخ الضابط البطل — « فليحيَ الوطن »

فردت الفرقة الباسلة بصرخة عظيمة واحدة — « فليحيَ الوطن»

ومثلما تنقض النسور عَلَى فرائسها ، ومثلما تندفع الكرات من افواه مدافعها هكذا اندفعت تلك الآساد الآدمية الى الموت يتقدمها الضابط — بولس .

لم تكد تصل الى اسفل الرابية حتى رآها رجال المدفعية من ورآء مدافعهم ولم تكد تصل الى المنتصف حتى صبت المدافع ذخائرها عليهم دفعة واحدة فسقط نصف الفرقة . لكن النصف الآخر لم يتوقف بل ازداد سرعة الى الامام اذ سمع صوت الضابط امامه يصيح — « فليحيَ الوطن » . ومن تحت سحب الدخان خرج الصدى تردده افواه كثيرة بحماسة وافتخار — « فليحيَ الوطن » . وتقدم الشجعان بسرعة غريبة فائقة الوصف . ولم تمض دقيقة حتى اصبحوا عَلَى افواه المدافع ولكنهم لم يتحفزوا للانقضاض عَلَى رجال المدفعية حتى انطلقت تلك الالات الهائلة بصوت كأنه الرعد القاصف ولما انقشعت سحب الدخان لم يُرَ من الشجعان الا اربعة ارجال فقط . ثلاثة جنود وضابط . وصرخ الضابط بصوت يتهدج استهاتة — « اهجموا حالاً عَلَى رجال المدفعية » . وبلحظة نشبت معركة صغيرة وراء المدافع بين اصحابها وبين الرجال الاربعة المهاجمين ولم تطل فان قنبلة انفجرت بينهم فقتلت الجميع الا واحداً — هو الضابط بولس . لكنه لم يكن سالماً فان احدى رجليه كانت مقطوعة ورجله الاخرى مكسورة ويده اليسرى الصحيحة تحطمت بشظية من القنبلة فلم يعد قادراً عَلَى تحريك عضو من

جسمه . ولكنه في وسط تلك الالام المذيبة والعجز المحتوم لم يعدم وسيلة فانه قد قبض عَلَى علمه المنتصر بين اسنانه وجعل يزحف عَلَى بطنه فوق رفاقه القتلى الى ان وصل الى المدفع الكبير وهناك بكل ما في جسمه من العزم المتلاشي وبكل ما في نفسه من الهمة الباقية وبكل ما في روحه الامينة من الوداعة والابتهاج انطرح عَلَى قاعدة المدفع والعلم لا يزال بين اسنانه واركزه في الارض فوق رأسه وفوق المدفع وبصوت كأنه خارج من اعماق القبر هتف صارخاً — « فليحيَ الوطن » وسقط

.....

بعدما وضعت الحرب اوزارها واستأمنت بلاد الضابط بولس من مفاجأة الاعداء قررت نظارة الحربية ان تبني عَلَى الرابية الآنفة الذكر سلسلة من الحصون والابراج المنيعة لترد عنها غارات الحروب في المستقبل . وبينما الرجال يحفرون ذات يوم في التراب عَلَى جانب الرابية عثروا عَلَى هيكل بشري برجل واحدة وكفه اليمنى موضوعة عَلَى ناحية قلبه . ووجدوا تحت الكفّ عَلَى ضلوع الصدر محفظة من الجلد غير بالية . ووجدوا في تلك المحفظة شيئين فقط . الاول صورة فتاة جميلة وعليها هذه الكلمات — « الى ملاكي بولس . من بولين » . والثاني ورقة مطوية ففتحوها فاذا بها خارطة مصغرة — خارطة بلادهم .

سلوا الرجال من اية بلادهم . سلوهم اية بلاد كانت تمثل تلك الخارطة

— خارطة البطل — بلاد الابطال

أهي خارطة البلجيك ؟

ام هي خارطة سوريا ...؟

الاكوادور « امين مشرق »

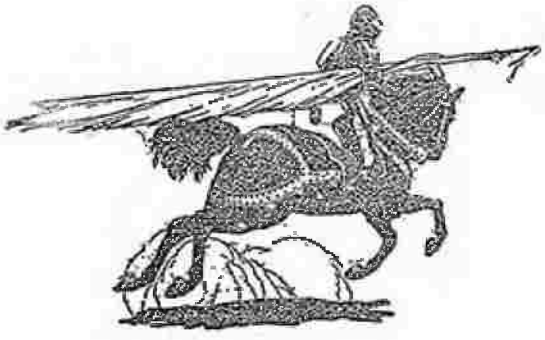

— من اقوال الخلفاء —

قال عمر بن الخطاب — اريد رجلاً اذا كان في القوم وهو اميرهم كان كبعضهم . واذا لم يكن اميرهم فكأنه اميرهم

وقال علي من امضى يومه في غير حق قضاه ، او فرض أداه ، أو مجد بناه ، أو حمد حصله ، أو خير أسسه أو علم اقتبسه فقد عظم يومه

وقال معاوية — اني لآنف ان يكون في الارض جهل الا يسعه حلمي ، وذنب لا يسعه عفوي ، وحاجة لا يسعها جودي ،

وقال المأمون — لو عرف اهل الجرائم لذتي في العفو لاكتسبوها